مجمع اللغة العربية بدمشق

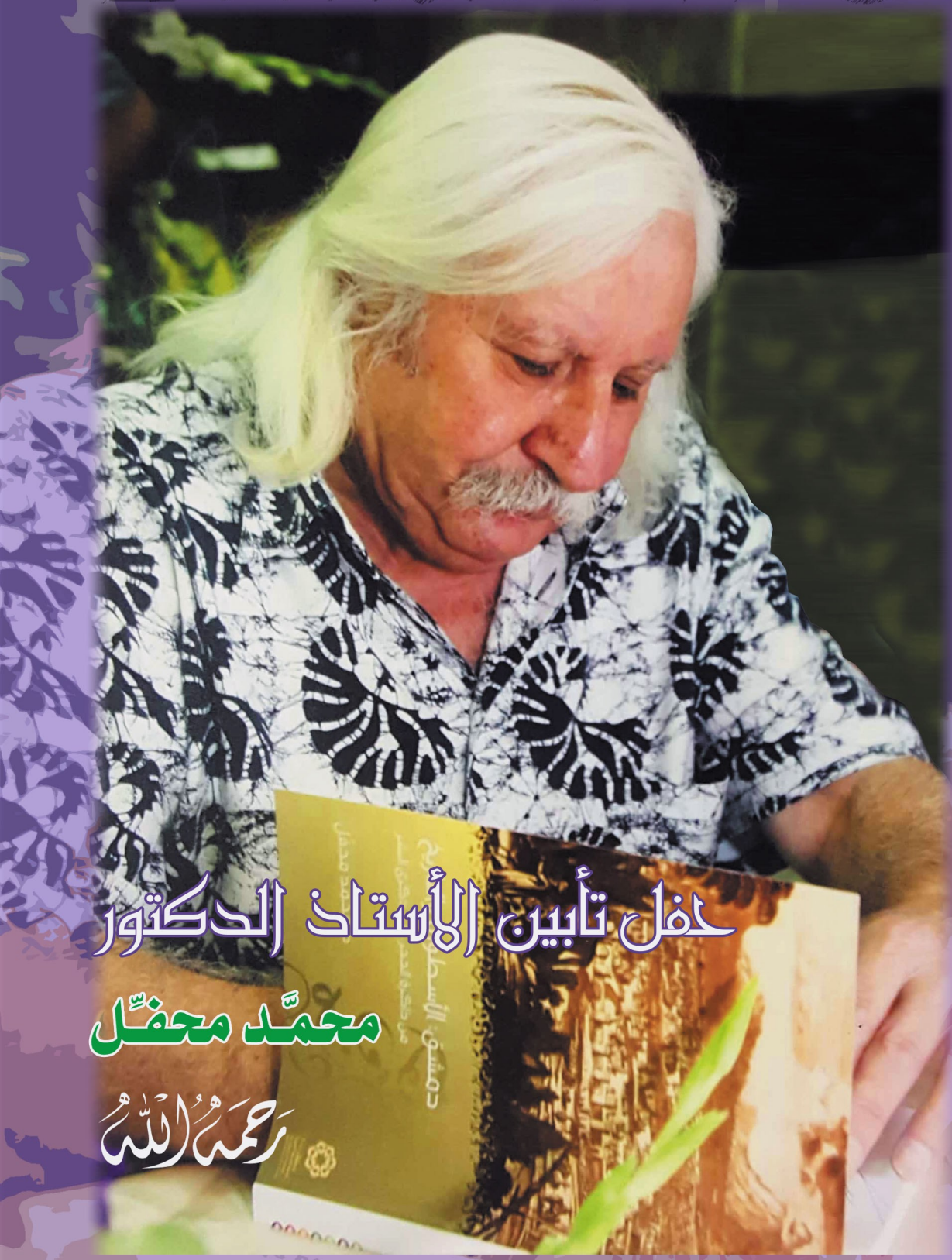

حفل تأبين الأستاذ الدكتور

محمّد محفّل

رحمه الله

مجمع اللغة العربية بدمشق

حفل تأبين الأستاذ الدكتور

محمَّد محفِّل

رحمه الله

حفل تأبين

الأستاذ الدكتور محمد محفل

رحمه الله

أقيم في الساعة الثانية عشرة من يوم الأربعاء ٨/جمادى الآخرة/ ١٤٤٠هـ الموافق ١٣ /شباط/ ٢٠١٩م في قاعة الدكتور أحمد منيف العائدي في مجمع اللغة العربية بدمشق حفل تأبين للراحل الكبير الأستاذ الدكتور محمد محفل رحمه الله. وقد اختار الله فقيدنا إلى جواره في ٢/كانون الثاني/٢٠١٩م بعد رحلة طويلة حافلة بالعلم والعطاء.

افتُتح الحفل بتلاوة آيات من الذكر الحكيم ثم ألقيت الكلمات التأبينية الآتية:

- كلمة مجمع اللغة العربية ألقاها الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع.
- كلمة جامعة دمشق ألقاها الدكتور ماهر قباقيبي رئيس الجامعة.
- كلمة مديرية الآثار والمتاحف ألقاها الدكتور محمود حمود المدير العام.
- كلمة أصدقاء الفقيد ألقاها الدكتور زهير ناجي.
- كلمة طلاب الفقيد ألقاها الدكتور عيد مرعي.
- كلمة آل الفقيد ألقاها نجله السيد فداء محفل.

كلمة عريف الحفل

الأستاذ محمد زياد حلمي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٤ – ٣٥]

صدق الله العظيم

الأستاذُ الدكتور مروان المحاسني رئيسُ مجمع اللغة العربية بدمشق...

الأستاذُ الدكتور ماهر قباقيبي رئيسُ جامعة دمشق..

السّادةُ أعضاءُ المجمع الأكارم...

السادةُ الضّيوفُ الأعزاء....

أيتها السيدات أيها السادة...

تحيّةً مباركةً طيبةً..

يطيبُ لي أن أرّحب بحضراتكم أجمل ترحيب في ربوع مجمعنا التّليد.. مجمعِ اللغة العربية بدمشق، ونحن نجتمع لتأبين الأستاذ الدكتور محمد محفل.. رحمه الله.. ذلك العالم الفَذّ.. الذي نذر حياته للعلم والمعرفة.. فأعدّ العُدّة.. وركب سفينته المتواضعة.. وراح يمْخُر عُباب التاريخ القديم.. يجُول في أنحائه المترامية.. يسبر أغواره.. ويكتشف كنوزه وأصدافه.. ويقاوم عناده وأخطاره.. في سنوات من

عمره طِوال.. وبعد رحلة شاقة.. محفوفةٍ بالمصاعب والعقبات، أنهى ذلك الرحّالة رحلته.. وأرسى سفينته على شاطئ الحياة.. حاملاً في جعبته الكثير من العلم والاكتشافات.. مالئاً خزائن سفينته بالكنوز الثمينة. ثم خلع قبّعته.. وانحنى أمام الماضي انحناءة احترام.. مُلقياً عليه تحية الوداع.. ليفتحَ للمستقبل باباً تلجُ منه الأجيال من بعده إلى ماضيها الأصيل.. تستخرج من كنوزه المفيدَ الثمين.. وتتعلم من أخطائه وعثراته.. فتصحِّحُ المسيرة.. وتعيد ضبط البوصلة..

رحم الله أستاذنا العالم الجليل المؤرّخ الدكتور محمد محفل، وأنزل على قبره غيث رحماته.

أيها السادة الكرام..

هكذا يرحلون... مثلما يرحلُ الغَيْمُ مُثْقلاً بحباتِ المطر.. ومثلما ترحلُ الأمنياتُ.. تاركةً خلفَها مساحاتٍ شاسعةً من الذهول.. وهكذا يموتون.. مثلما تموتُ البذور في موسمٍ خصيب..

يتساقطون على الدّروب كأنهم ورقُ الخريف يهزُّه الإعصارُ

أيها السّادة الأفاضل..

نستمع الآن إلى كلمات تأبينية كريمة من علماءَ أجلاءَ واكبوا مسيرة الفقيد.. وربطتهم به علاقات وطيدة على صعيدي العمل والحياة.

نشكر حضوركم... دمتم بخير وعافية... ودام الأمن والأمان في ربوع هذا البلد الحبيب.... والرحمةُ لفقيدنا الغالي الأستاذ الدكتور محمد محفّل، ولأهله الصبرُ والسلوان... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.....

كلمة رئيس مجمع اللغة العربية
الأستاذ الدكتور مروان المحاسني

أيها الحفل الكريم

إني إذ أشكر لكم حضوركم حفل تأبين فقيدنا الكبير الأستاذ الدكتور محمد محفل أقول:

إن التأبين لا يعني الإغداق على الصديق العزيز رحمه الله بالمديح والتقريظ وهو ليس بحاجة إلى مثل ذلك، بل إن الغرض هو توضيح المسار العلمي لمن اختاره مجمعنا عضواً عاملاً، بالاستناد لما في ذلك المسار من تميّز وحصافةٍ في انتقائه للموضوعات العلمية المحيطة بمادة التاريخ التي هي تخصّصه.

وكان مجمعنا قد فقد رصيفَتنا الدكتورة ليلى الصباغ أستاذة التاريخ، وهي أول امرأة تدخل مجمعنا منذ تأسيسه قبل ما يقارب مئة عام، فرأى مجمعنا ترشيحَ الأستاذ الدكتور محمد محفل لمقعدها الشاغر.

وذلك لأن النظر إلى سيرته العلمية، بعد حصوله على البكالوريا عام ١٩٤٩،قد أوضح اختياره الانتسابَ إلى المعهد العالي للمعلمين، وهو انتساب يدل على تعلّقه بالتدريس، رغبةً بما فيه من توضيحٍ للمجالات العلمية إلى المُتلقّين من الطلبة، معتمداً أفضل الطرائق التعليمية التي يتدرّب عليها في المعهد العالي، وهذا ما يسمح له بإتمام مسؤوليته الوجدانية في إيصال الطالب إلى المستوى المرغوب.

ومن يعود إلى تاريخ الجامعات والمعاهد التعليمية الحديثة في أوربا يَظهرُ له بكلّ وضوح قيمةَ الانتساب إلى المعهد العالي للمعلمين، حيث يطّلِع على إحصاءات أثبتت أن نسبةً كبيرة من رجال السياسة ورجال الفكر في فرنسا كانوا من خريجي هذا المعهد، الذي بسط أمامهم نماذج فكريةً متميزةً شاركت في حدوث ذلك الانبثاق المعرفي الحداثي في أوربا القرن العشرين، واستفادوا منها في حياتهم وإنتاجهم.

وإلى جانب ذلك فقد لفت نظرَ مجلس المجمع إصرارُ الدكتور محفل على الانفتاح المعرفي في صميم الدراسات التاريخية، التي تؤكّد لمن يسلكها وجودَ تطوراتٍ مجتمعية اجتاحت الدول في الشرق والغرب، حاملةً بذورَ النهضة والارتقاء، أو بذور الخراب والانشقاق، وهذا ما كان واضحاً في الخرائط الجغرافية طيلة القرن العشرين. إنها تطورات يحتاج إلى فهمها كل من يسعى إلى إزالة الغموض عن بعض التحولات التاريخية حين دراسة تاريخ مجتمعه.

كما أن رغبَته في الانفتاح على ما يجري في بلاده، وإدراكَه لأهمية التدريس في بناء المجتمعات جعله يُضيف إلى دراساته دبلوماً في علوم التربية وفي علم النفس من جامعة دمشق.

وإضافة إلى هذه المنطلقات فقد حَظي رحمه الله بإيفاد إلى جامعة باريس لمتابعة الدراسات العليا في التاريخ القديم بعد أن أنهى دراسة التاريخ في كلية الآداب في دمشق.

فاغتنم هذه الفرصة لدراسة اللغات القديمة، غربية كانت كاللاتينية واليونانية أو مشرقية كالآرامية، بقصد الولوج إلى صميم النصوص والكتابات التي تسمح له بتفهّم مرتكزات التاريخ القديم في بلادنا.

كما أنه انتسب إلى معهد اللوفر في باريس وهو الحاوي لِقِطَعٍ نادرة من الآثار السورية، وقد حصل على شهادة علم الآثار فيه.

وبذلك جمع فقيدنا الأسس العلمية والفنية لدراسة التاريخ كي يتمتع بالعمق الكافي للقيام بتدريسه.

ثم رأى أن يكون تخصصه بالعصر الروماني الإمبراطوري نظراً لأن بلادنا كانت مسرحاً رئيسياً لما نعرفه عن نشوء الإمبراطورية ثم انهيارها، حين انتقلت عاصمتها إلى مشرقنا وسادت بيزنطا على عالم البحر المتوسط، وكانت دراسته هذه في جامعة جنيف في سويسرا.

وعرفت جامعة دمشق بعد ذلك الدكتور محمد محفل أستاذاً للتاريخ القديم وأستاذاً للغات المشرقية القديمة في كلية الآداب، وأستاذاً في كلية الفنون الجميلة حيث كان يتولّى تدريس تاريخ الفن في كلية هندسة العمارة، إلى جانب تدريس تاريخ الحضارات.

وهكذا نرى كيف أن هذه الخيارات قد جعلته يستكمل بمجهود شخصي تخصصاً متعددَ الروافد، منها ما هو لساني، ومنها ما هو فني، مع إصرارٍ واضح على تكوين معرفة تكاد تكون موسوعية تضم اللغات القديمة، المشرقية والغربية إلى خبرات فنية توصيفية، تكشف تطور البراعات التنفيذية وتحدد حقائق الابداع والتقليد.

أيها الحفل الكريم

لقد عرضتُ لكم مختصراً عن نشاطات الدكتور محفل التعلّمية والتعليمية بما يكفي لتوضيح عمقِ انتمائه إلى وطنه، إضافةً إلى مساعيه الهادفة إلى الإفادة من كل شَذَرَة وجدها في دراساته لتأكيد أصالة الثقافة العربية، الحاملة لمجالات

واسعة من التثاقف، وهذا ما جعلها تتربّع على عالمية مستقرّة في أوربا اعتباراً من القرن الرابع عشر وحتى نهاية السادس عشر.

وكان بروز هذه العالمية بعد أن اعتمد الغرب، فلسفةَ ابن رشد وما رافقها من فتوحات معرفية وعلى رأسها الطريقة التجريبية في العلوم وهي مفتاح كل بحث علمي.إنها الفتوحات التي أوصلت الغرب إلى العالميّة بعد أن انتقل العلم العربي من الأندلس عن طريق التراجمة إلى الجامعات الأوربية فعرفوا ابن النفيس وابن الهيثم وابن سينا وغيرهم وأشهر هذه الجامعات كانت جامعة مونبليه في فرنسا

ولا بد لي من القول:

لقد كان الدكتور محفل مجمعياً مثالياً، فهو مثالي في تكوينه العلمي المتكامل، إذ أضاف إلى مجاله التخصصي مجموعةً من الفروع العلمية بل علوماً مستقلة تُوسّع أفقَ تخصصه المحدد، بما يعطي له عمقاً علمياً يساعد على تفهّم دقائق التخصص، وذلك بجهوده الشخصية واستفادةً من ظروف سانحة.

كما أنه كان مثاليًّا في ارتباطه الوجدانيّ بأعمال المجمع، يحضر جميع الجلسات ويشارك في مناقشة الموضوعات المطروحة،وذلك في لجنة الإعلام التي تدرس لغة الصحافة والعبارات الدارجة في الإذاعة والتلفزة، لتخلّصها مما فيها من عجمةٍ تقضي على صفاء لغتها. فانبرت اللجنة إلى إعداد المقابلات العربية لتلك الألفاظ الدخيلة وكذلك فإن مشاركته في لجنة ألفاظ الحضارة كانت متميزة بما له من إلمام في عدد من اللغات وسيعرض معجم ألفاظ الحضارة على المؤتمر العاشر قريباً.

ولا شك بأن ما نشره من دراسات في المجلات العلمية العربية عن مشكلاتٍ

معاصرة، كنشأة الصهيونية مثلاً، كان لها دور كبير في توضيح العناصر المكونة للفكر الصهيوني، ولذلك فإن دراساته في مجلة الدراسات التاريخية التي كان يرأس تحريرها قد لفتت الأنظار إلى صلات القربى بين لغتنا العربية واللغات المشرقية التاريخية وبخاصة اللغة الأكادية التي كانت سائدة في بلاد الرافدين، والتي كشفت دراسات عديدة وجودَ آثارها في نسبة عالية من ألفاظ اللغة العربية المعاصرة. وقد كافأه السيد الرئيس على مجهوده العلمي بوسام الاستحقاق السوري بدرجة ممتازة.

أيها الحفل الكريم

إن مجمعنا لاينسى أولئك المخلصين للغة العربية الذين بذلوا جهوداً فعالة حين أسسوا أول مجمع في العالم العربي، مؤكدين قدرة هذه اللغة العريقة على تحمل أعباء الحداثة في العلوم وفي جميع المجالات التقانية.

وقد كان عملهم خلّاقاً حين تمكنوا من القضاء على محاولات التتريك وفتحوا الباب واسعاً للنهوض باللغة العربية لغةً علمية حداثية. وهذا ما جعل مجمعنا عماداً لإنشاء جامعة وطنية تدرّس الآداب والعلوم باللغة العربية، وذلك في ظروف سياسية كانت تسعى خلالها سلطات الانتداب أن يكون التدريس فيها باللغة الفرنسية وذلك عام ١٩٢٠.

ونحن اليوم نسير على خطاهم متجاوزين كل الصعوبات التي تمثلها تلك العولمة التي تجتاح رياحُها العاتية جميعَ الثقافات التي لم تشارك في بناء الحداثة.

فلقد أنجز مجمعنا في سنوات قليلة عدداً من المعاجم العلمية التدريسية في مختلف العلوم الطبيعية: في النبات والحيوان، وعلوم الأرض، وألفاظ الحضارة، إلى جانب المعاجم الخاصة بالرياضيات والمعلوماتية والفيزياء والكيمياء.

إنها مجهودات نُطلق عليها عملية توطين العلوم، وهي تهدف إلى مناهضة الميول التغريبّية التي نراها حولنا حين نستمع إلى أحاديث الشباب وذلك لتأكيد اعتماد اللغة العربية لغة علمية صالحة لجميع المستويات وجميع العلوم.

ولذلك حاولتُ اليوم أن أُبرز مسار فقيدنا العلمي الذي ضمّ إلى التخصص الأساسي مجموعة من العلوم والدراسات أوصلته إلى نظرة شاملة تتحدى الصعوبات في أي مجال من مجالات توطين العلوم والتقانات.

ولذا ستبقى ذكراه حية في قلوبنا مقدرين تميزه في خدمة بلاده وعمق اهتمامه بتطوير اللغة العربية بما يجعلها قادرة على تجاوز عقبات العولمة ومنزلقات التقانات.

رحم الله فقيدنا وأسبغ عليه رضوانه.

والسلام

كلمة رئيس جامعة دمشق
الأستاذ الدكتور محمد ماهر قباقيبي

أيها الحفل الكريم

كم هي قاسيةٌ لحَظَاتُ الوداعِ والفراق التي تُسَجَّلُ وتُخَزَّنُ في القلبِ والذاكرةِ، وكم نشعُرُ بالحزنِ وفداحةِ الخَسارة والفجيعة، ونحنُ نودّع إحدى قاماتِ سوريةَ العلميةِ والثقافية الباسقة، إنَّه الدكتورُ الباحثُ والمؤرّخُ (محمد محفّل) رَحِمَهُ الله، أستاذُ اللغاتِ الكلاسيكيةِ والتاريخ القديم في جامعة دمشق، الذي خسرتْ سوريةُ والوطن العربيُّ برَحيلِهِ واحداً من أهمِّ دارسي التاريخ القديم للمنْطقة، بعد عقودٍ من البحث والتدريس الأكاديميّ في الجامعات والمعاهد والمراكز البحثيَّة.

نعم لقد أعطَى الراحلُ الكثيرَ من علمهِ ووقتهِ لطلَّابِهِ وللبحث العلميّ في مَجال التاريخ والآثار. وتَلْمَذ له أجيالٌ عِدَّة، نَهَلتْ من خبرتِهِ العميقة ما يتعلَّقُ بالتاريخِ القديمِ لسورية ـ الطبيعية، فقدْ تميَّزَ بمَعارِفِه الواسعة، وقُدُراتِهِ العلميةِ الكبيرة، ومعرفتِهِ لعددٍ من اللغاتِ القديمةِ والحديثةِ، وأهمُّها الآراميَّةُ التي كانت مِحْوَرَ اهتمامهِ إذْ كانَ يرى فيها لُغَةَ أهلِ الأرضِ.

أيها الحضورُ الكريم

لقدْ أسهَمَ الراحلُ في تأسيس لَجْنَةِ كِتابةِ تاريخ العَرَبِ بجامعة دمشق، وترأَّسَ تحريرَ مجلّةِ (دراساتٍ تاريخية)، وأشرَفَ على تنظيمِ نَدَواتٍ علميَّةٍ سوريّةٍ وعربيَّةٍ

ودوَليَّةٍ، وانْتُخِبَ عام ألفين وثمانيةٍ عُضْواً في مجمع اللغةِ العربيةِ، وحازَ في عامِ ألفين واثنَيْ عَشَرَ وسامَ الاستحقاقِ السوريّ مِنَ الدَّرَجةِ الممتازةِ لإنجازاتِهِ العلميةِ المُهِمَّة.

ولم يقتصرِ التأثيرُ العلميُّ والبَحْثيُّ للرَّاحِلِ (محمد محفّل) على الجامعات ومعاهد التدريسِ والإشراف على الدراسات التاريخيَّة، بل شَملَ مَجَالَ التدقيقِ التاريخيّ.

وقد ترك بَصْمَةً واضحةً في مسيرةِ الدّراما العربيَّةِ إذْ ظَهرَ اسمُهُ بصفتِهِ مدقِّقاً تاريخياً في العديدِ مِنْ أعمال الدراما التاريخية.

أيها الحفلُ الكريم

ما أقسى أنْ أتحَدَّثَ عنْ قامةٍ علميّةٍ وأستاذٍ قديرٍ يُعدُّ واحداً مِن جِيلِ المربّينَ والأساتذةِ الأفاضلِ المُؤمِنينَ بالرسالةِ التربويةِ العظيمة، النَّاكرينَ للذاتِ، مِنْ ذلكَ الزمنِ الجميل البعيدِ، الذي نَذَرَ حياتهُ لوَطَنِه، ولكنَّ مِثْلَ هؤلاءِ الرجالِ لا يَرْحَلُونَ إنَّهُمْ يَسْتَمِرُّون فينا ومعَنَا بفِكْرِهِمْ وأخلاقِهم، ويَسْتَمِرُّون في ذاكرة الجامعة والوطن.

وما هذا الجمْعُ الكريمُ إلاَّ واحداً منْ صوَر التعبيرِ عنِ العرفانِ والوفاء الكريم لهذا الراحلِ الكبيرِ، الذّي تَرَك لنا ما نتلَّقاهُ حُبَّاً في قلوبنا وأسماعِنا ووِجدانِنا ونفوسِنا.

وإنَّ جامعةَ دمشقَ لَتَضْرِبُ بتكريمِها اسمَ الراحلِ أروَعَ الأمثلةِ على ما يجِبُ أنْ يكونَ عليه تعظيمُ أسماءِ الشُّرفاءِ من أبناءِ هذا الوطن، والأثرِ الطَّيّبِ الذي نَسَجوهُ في تاريخ هذه الجامعة العريقة...

للدكتور الراحلِ الرحمةُ، والعزاءُ لأهلِهِ وأصدقائِه وطلاَّبِهِ ومحِبّيه، ولنا نحن في جامعةِ دمشقَ وهيئتِها التدريسيّةِ وطلاَّبِها العزاءُ فيما تَرَكهُ لنا من عِلْمٍ ومعرِفةٍ وأخلاقٍ نبيلة.

والسلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.

كلمة مديرية الآثار والمتاحف
الأستاذ الدكتور محمود حمود

أيها السيدات والسادة

يشرفني أن أشارك في تأبين عالم من علماء وطني، وبحضور لفيف من العلماء الأجلاء وجهابذة الفكر.

وقد جئت للتوّ من معهد التراث التابع لكلية العمارة في جامعة دمشق، حيث كان الراحل يعلِّم حتى آخر أيامه فيه. وأنقل اعتذار طلابه وأساتذة المعهد لعدم تمكُّنهم من الحضور بسبب تزامن مناقشة رسائل الماجستير مع توقيت هذا التأبين.

لم يكن لي شرف التلمذة عند الدكتور محمد محفل فهو أستاذ أساتذتي، ولكن تعرّفت به أثناء عمله في لجنة كتابة (تاريخ العرب) طوال عَقد من الزمن من خلال تردّدي على صديقي مدير تحرير مجلة (دراسات تاريخية) الأستاذ عبد الكريم العلي، التي كان المرحوم يرأس تحريرها، حيث نهلتُ منه الكثير من العلم والمعرفة خلال الجلسات والحوارات التي كانت تجمعني به، والتي أجاب فيها على الكثير من الأسئلة والاستفسارات التي كنت أطرحها. وقد أبهرتني ثروته المعرفية ليس في مجال التاريخ القديم وآثاره فحسب، وإنما في التاريخ الكلاسيكي والإسلامي وحتى المعاصر، وأهمُّ من ذلك تمتُّعه بقيم العالم الجليل التي من أهم صفاتها التواضع والمحبة والعطاء بسخاء وبمنتهى السعادة.

ثم تشرفنا به عضواً في المجلس الأعلى للآثار، كما كان لنا شرف افتتاحه منتدى كنوز التراث السوري الذي نظّمناه في المتحف الوطني بدمشق، وكان عنوان المحاضرة (بلاد كنعان في ميزان العالم القديم).

كان رحمه الله عالماً موسوعياً ومثقفاً صاحب فكر وسلوك متمرد على السكون والتقاليد البالية، وعلى الظلم والتخلف.

كانت تؤلمه الانتكاسات الحضارية في الوطن العربي، والعجز العربي بوجهٍ عام عن اللحاق برَكْب الحضارة الإنسانية، نتيجة ظروف أوجدها العرب وجذورها في انقساماتهم الطائفية والمذهبية والأثنية وغيرها...

وكان رحمه الله فوق كل هذه الانقسامات يرفضها شكلاً ومضموناً، كما كان يرفض ثقافة التقليد والتبعية والعجز والهزيمة، وكان يؤمن بأن المجتمع العربي يملك كل أسباب رقيّه وتطوُّره إذا رغب في ذلك.

كان إيمانه بحريّة الإنسان لا حدود له، وكان يربط دائماً بين الحرية ووعي الحرية من خلال تقنين المجتمع وتنظيمه.

أيها السادة:

إن رحيل مثل هذه القامات الوطنية والعلمية هي فرصة لنا للتباهي بمخزوننا الفكري وأرضنا وإنسانيّتِنا وشرف وطننا.

لن أستطيع أن أَفِيَ المرحوم حقّه أو الحديث عن مناقبه، وإنما هي بعض إشارات فقط وسيبقى رحمه الله حاضراً وخالداً في علمه وعطائه مدى الدهر.

أسكنه الله فسيح جنانه، وسبحان من له وحده الديمومة والبقاء..

والسلام عليكم.

السيدة الدكتورة نجاح العطار.. نائب رئيس الجمهورية
تقلد الدكتور محمد محفل وسام الاستحقاق السوري

الفقيد محفل مع طلابه

من أجواء حفل التأبين

كلمة أصدقاء الفقيد

الأستاذ الدكتور زهير ناجي

سيدي رئيس مجمع الخالدين حُماةِ لغتنا الشريفة وتراثنا المجيد...

سادتي أعضاء المجمع...

سيداتي وسادتي ضيوف المجمع...

شرف كبير لمن يمتطي صهوة منبر مجمع الخالدين، مجمع اللغة العربية ليلقي كلمة في حفل تأبين واحدٍ منهم.

اسمحوا لي أن أبدأ كلمتي بقصة رمزية عن الموت والخلود، أسطورة إغريقية لاأذكر متى قرأتها، وفي مرويات ومعتقدات كثير من الشعوب مثلها أو ما في مغزاها.

«كانت سيديب (Cydippe) كاهنة أحد معابد الإلهة حيرا (أو هيرا) زوجة الإله زفس وكان لها ولدان، بيتون (Biton) وكليوبيس (Cleopice) رغبت أمهما وقد أثقلتِ السنونَ جسدها المتعب بأن تحج إلى معبد حيرا الكبير في بلاد آرغوس الذي أقيمت فيه أجمل التماثيل من الذهب والعاج لهذه الربّة.

وكانت التقاليد تقضي على من يقصد المعبد لتُقبل حجته أن يجرّ عربتَه ثوران أبيضان.

فتش الولدان المطيعان عبثاً عن ثورين أبيضين فلم يجداهما، فقام الولدان بجَرِّ العربة إلى أن وصلا إلى آرغوس حيث أتمّتِ الأم مناسك حجّها.

اقترح رئيس الكهنة على الكاهنة (سيديب) أن تصلّي في قدس الأقداس أمام تمثال الربة العجيب، وكان سرور الكاهنة عظيماً... لقد أتيح لها أن تمثُل في حضرة الربّة.

طلبت الكاهنة من (حيرا) أن تبارك ابنها المطيعين، وأن تخلع عليهما أعظم هباتها..

لم يدُرْ بخَلَد الأم الكاهنة ماهيةُ تلك الهِبَة، كانت تلك الهبةُ هي الموت... أعظمُ أعطيات الآلهة.

لقد هبطت (هيرا) من (البانتيون) مجمع الآلهة، وحملت روحي الشابّين إلى حقول (إيليزيا)... إلى جنة الخُلد... مقرِّ السعداء.

أذكر أنني حين قمت بتدريس المواد الاجتماعية في عام ستين وتسعمئة وألف في ثانوية تدمر... تلك الآبدة الخالدة التي تشمّ فيها عبق التاريخ، وشموخ الكبرياء والكرامة، كنت في ليالي الخريف غير القمرية حين يحلو تأمُّل قُبة السماء المرصَّعة بملايين النجوم، وهو مشهد نفتقده عادةً في المدن، ولا نحسُّ بروعته إلا في تلك السُّهوب الرحيبة، كنت وأنا أتأمل القُبَّة المرصَّعة تمرُق بين الفَينة والأخرى شهب كثيرة رائعة الجمال، كنت أقول: إنها أرواح الناس الطيّبين على شاكلة (بيتونوكليوبيس).. تذهب كل روح منها لتستقر في واحدة من هذه النجوم.

ومَنْ أجدر بأن تعدّ أسماؤهم من حماة تراث الأمة...من الخالدين من حماة لغتها وتراثها وتاريخها، هذا شهاب الأستاذ مؤسس مجمع الخالدين محمد كرد علي، ليتني أعرف أي نجم استقر فيه... وهذا شهاب الشاعر خليل مردم بك، وهذا شهاب العالم الطبيب حسني سبح، وهذا شهاب العلامة اللغوي عبد القادر المبارك... وهذا شهاب أستاذي كامل عيّاد، وهذا شهاب أستاذي جميل صليبا وليلى صباغ.. والبطرك أفرام... وشكيب أرسلان وعيسى المعلوف وميشيل خوري ولويس شيخو...

ليتني أستطيع تعداد أسماء الخالدين الذين ارتفعت أرواحهم إلى جنة الخلد... مقرّ السعداء.

اسمحوا لي أن أضيف إلى القائمة روح زميلي وصديقي محمد محفل إلى جنة الرفيق الأعلى يا محمد.. فأنت شهاب آخر نلت أجمل هبة من هبات الآلهة..

سيداتي وسادتي:

الزميل والصديق والأخ محمد محفل هو آخر شهاب انطلق من كنانة مجمع الخالدين في دمشق.. مجمع اللغة العربية لا أعلم أيَّ نجم سيختار من ملايين النجوم ولكنه سيكون واحداً منها.

في حضرة مجمع الخالدين أرجو أن يسمحوا لي عرضاً بأن أضيف إلى تلك الشهب التي ترتفع إلى الأعالي يومياً أرواحَ الشهداء الذين وهبوا أرواحهم للدفاع عن الوطن وعن الشعب وعن الكرامة وعن المستضعفين في الأرض، ومنهم صديقي وزميلي شهيد تدمر خالد الأسعد.

هناك في السماء متسع للأنبياء والمصلحين والحكماء والشعراء والأدباء واللغويين ولكل من يدعو إلى العدل والمحبة والرحمة.

التحقتُ أنا والفقيدُ الغالي في عام ١٩٥٠/٤٩ الدراسي في الفوج الرابع من المنتسبين إلى الجامعة السورية الوليدة التي كان تحويلها إلى جامعة حقيقية تضمّ كليات العلوم والآداب وكان توسيعها الثمرة الشهية الأولى بعد جلاء الجيوش الاستعمارية. التحقنا طالبين في قسم التاريخ من كلية الآداب وفي المعهد العالي للمعلمين مع مجموعة من الزملاء: رباح نفاخ وهشام الصفدي وحكمت كديمي وعبد الغني غبرة وعدنان العطار وأحمد معتوق ونذير الأتاسي وأربع آنسات كريمات الآنسة الأتاسي والآنسة حسيني والآنسة قتابي والآنسة إسحق، وبقينا أربع سنوات سِمان من أجمل سنوات العمر، ننهل من نبع معارف أساتذة أجلّاء.. نور الدين حاطوم وجورج حداد وكامل عياد وسليم عادل عبد الحق وشاكر مصطفى وقسطنطين زريق وجميل صليبا وحكمت هاشم وشكري مهران وآخرين وتخرجنا في عام ١٩٥٣/١٩٥٢ الدراسي بطبل وزمر في حفلة يوم البراميل الشهيرة التي ألغيت دار المعلمين العليا (عش الدبابير) بعدها مباشرة.

كان محمد محفل الأجمل في صفنا والأكثر أناقة والأكثر «حيوية» ديناميكية، كان اجتماعياً من الطراز الأول صديقاً لكل زملائه وبخاصة لأساتذته.. لو لم يكن أستاذه نور الدين حاطوم يحبه ويعجب بصفاته ومناقبه فهل كان يرضى بمصاهرته؟ كان مرحاً تستحب مجالسته ومسامرته وقد ظل كذلك حتى آخر أيامه صديقاً لكل الناس.

وأنتم في مجمع الخالدين الذين عشتم معه، عاشرتموه منذ أن أصبح عضواً في مجمعكم الكريم، عرفتموه في آخر أيامه أكثر مني.

كان برجوازياً أصيلاً من عائلة من مترفي حلب ومنعميها بكل ما في الكلمة من معنى، ولكنه انحاز إلى المستضعفين في الأرض كما فعل (جوديا) ملك لاغاش وحمورابي من بابل وتوت عنخ أمون من طيبة واحموس الكاهن المصري النبيل الذي عرف باسم موسى.. وسأقف هنا عن التعداد، فأنتم تعرفون أكثر مني أن غالبية الأنبياء والحكماء والمصلحين ورجال السياسة ذوي القلوب المفعمة بالإنسانية والرحمة كانوا من (النُّخَب) التي انحازت إلى المستضعفين في الأرض.

وأنتم تعرفون الثمن الذي دفعه كثير من أولئك المصلحين من نفي وصلب وقتل..

ولكن الأجمل من ذلك كلِّه كان وعيه بسيرورة التاريخ، كان محمد محفل مثل أبناء جيلنا الذين عاشوا يفاعتهم وشبابهم الأول نحو عقدين من الزمان في ظل الانتداب الفرنسي البغيض قد تكونت قناعتهم بفضل ما شاهدوه بأم أعينهم وما شاركوا فيه وهم على مقاعد الدراسة من أحداث، وما تلقوه من أساتذتهم وما كان أروعهم من أساتذة غرسوا فينا (بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان... فلا حدٌّ يباعدنا ولا دِينٌ يفرقنا لسان الضاد يجمعنا بغسان وعدنان...) أساتذة كبار... كبار: جودت الهاشمي ومحمد البزم وكامل القصاب وعيد سفرجلاني ورشيد بقدونس والمطران يوسف نصر الله والدكتور كامل نصري وعبد الله نيازي،

كلكم تعلمون أن رأس الحربة في النضال ضد المستعمر البغيض كان هؤلاء الأساتذة وتلامذتهم وآخرون ليتني أستطيع تعداد أسمائهم كلهم، كان جيلنا كله بفضلهم (مؤدلجاً) ولكن قلة قليلة منه كانت متحزبة كانت البوصلة الموجهة لأعمالهم ولأفكارهم تشير إلى اتجاه واحد.

إن سبب مصائب البشرية كلِّها ومنها مصيبة تخلُّفنا الحضاري هو النظام الامبريالي البغيض. وتَحَرُّرُنا، وتحرر شعوب العالم كله من هذا النظام، هو السبيل الوحيد لتخلصنا من إرث التخلف، هكذا تبنَّى الشباب اتجاهات فكرية مختلفة اعتقد كل منهم أنها ستؤدي إلى التحرر والنهضة وإعادة أمجاد امتنا... تحولت فيما بعد إلى حزبية بغيضة.. كنا نختلف ونتنازع ونتجادل في السبيل الموصل إلى تكوين وطن عربي متحرر ومتطور وشعب سعيد.. أغلب جيلنا لم يكن يفكر بسعادته الشخصية... بالمكاسب التي يمكن أن يجنيها... كنا نفكر جميعاً بمصير أمتنا وننادي بضرورة تطورها ودخولها في رَكْب الحضارة العالمية واسألوا الكثيرين من أبناء جيلنا الحاضرين هنا.

كان من تقاليد ذلك الزمان تكليف كل طالب بإعداد رسالة تخرج (أطروحة صغيرة) في التاريخ أو في التربية.

أرجوكم تصفحوا رسائل خريجي ذلك الزمان في الأدب والتاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع.. كانت كلها هادفة ملْأى بالآمال لجيل شاب يريد أن يساهم في نهضة بلده.

كانت رسالة محمد محفل -على سبيل المثال- عن الحرب الأهلية في إسبانيا وصراع الشعب الإسباني ضد الفاشية..

وحين قرر مجلس قسم التاريخ عام ١٩٥٣ اختيار مرشح لإيفاده إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه في التاريخ وقع اختيار القسم على محمد محفل. وقلت

فيما بعد لأستاذي الجليل المرحوم الدكتور نور الدين حاطوم الذي أشرف على عملية الاختيار: لقد أحسنتم الاختيار يا سيدي.. أخذتم أحسننا، لا لبهاء طلعته ولا لجرأته ولقدرته على الجدال ولا لإجادته للغتين.. بل لوعيه الفكري والسياسي.. سيكون نِدًّا للفرنسيين ولن يجاملهم في قضايا الفكر والتحرر ولن يرقص على إيقاع (مزاميرهم).. مع أصدقائه في باريس ومنهم الدكتور غسان الرفاعي... كان يعرف تاريخ فرنسا جيداً، فقال للأكاديميين اليمينيين ما لا يحبون سماعه... تاريخ الشعب الفرنسي مجيد ولكن تاريخكم ليس كذلك.

وكذلك تاريخكم الاستعماري لا يشرفكم وتاريخكم ضد شعبكم نفسه في أعوام ١٨٤٨ و١٨٧١... ونخبكم الحاكمة تواطأت مع هتلر لقد خنتم (فرنساكم) نفسها منذ مؤامرة مونيخ عام ١٩٣٨ حتى العدوان على سورية ٢٩ أيار ١٩٤٥ وها أنتم تدعمون من جديد حرب إبادة الشعب الجزائري... لقد كاع (وكَيَّعَ) الأوساط الأكاديمية اليمينية الفرنسية خافوه وجبنوا عن مقارعته الحجة بالحجة فكان أن غضبوا عليه ورفضوا مناقشة أطروحته واضطروه إلى إكمالها في سويسرا، حتى وهو في فرنسا كانت هواجسه تتمحور حول سورية العربية والوطن العربي وقضايا التحرر والإصلاح...

أرسل لي عام ١٩٥٤ كتاباً عنوانه ملفات تربوية / بطاقات تاريخية من تأليف نخبة من المؤرخين الفرنسيين وأساتذة التاريخ غارودي وبروها وديكلو ودوترى وكلوزيه وآخرين في نقد كتب التاريخ المدرسة الفرنسية التي تزوّر التاريخ... لم يكن راضياً عن كثير من معلومات كتبنا المدرسية... قال لي في رسالته: أنحُ نحوه.. وساهمْ في تقديم خدمة لبلدك حاول مع زملائك تقديم تاريخ مدرسي قائم على التحليل والتعليل والنقد... فكان أن فعلت.

سيدي الرئيس.. سادتي أعضاء المجمع...

سادتي ضيوف المجمع...

محمد محفل اختار التاريخ ميداناً لفروسيته.. والتاريخ مادة خطرة... ديناميت يمكنها أن تدمر كما يمكنها أن تبني.

محمد محفل أراد أن يكون أستاذاً للتاريخ.. صاحب رسالة يريد إيصالها للنشء الصاعد ولما كان تعامله مع الكبار من طلاب الجامعات فإنه أراد أن يعلم كيفية كتابة التاريخ وكيفية تفسيره وكيف يمكن توظيفه.. أن يقول لهم: إن التاريخ عِلم نَقْد وتحليل التاريخ له قوانينه... التاريخ يمكن أن يكون علماً موضوعياً يستكشف الماضي لمصلحة الحاضر والمستقبل.

اسمحوا لي بأن اقتبس كلمات قالها الأستاذ محمد كامل الخطيب في تقديمه لأستاذنا كامل عياد في كتاب «مقالات مختارة (ج١ ص١١)».. وفي كل منا جزء من أساتذته الذين علّموه، وهي كلمات تنطبق على محمد محفل (علامتان امتاز بهما كامل عياد ولا بدّ من الإشارة إليهما وهما إيمانه بالتنوير، ثم نزاهته الفكرية فمن إيمانه بالتنوير أي إيمانه بالعقل والعلم ومن إيمانه بالعقل والعلم أي تمسكه بالحرية الفكرية أما نزاهته وأخلاقيته ومناقبيته العالية فقد دفعته نحو أفكار الاشتراكية [بمعنى العدالة الاجتماعية وإلغاء ظلم الإنسان للإنسان لا بمعنى الحزبية الضيق]، مثلما جعلته بعيداً عن «التحزُّب» بالمعنى الضيق لهذه الكلمة فالتحزب يحدّ من الحرية الفكرية مثلما قد يثلم النزاهة أحياناً).

محمد محفل كان كأستاذه كامل عياد كما قال الأستاذ الخطيب أيضاً (كان يكتفي بدور المدرس والموجه الفكري، أما المهمة السياسية المباشرة فقد تركها للآخرين) (ج١ ص١٠).

محمد محفل كان صاحب رسالة وحسب معرفتي به لم يكن متحزّباً....

واسمحوا لي بأن أتلو عليكم ما قاله أستاذنا جميل صليبا في حفل استقبال صديقه كامل عياد عضواً جديداً عاملاً في مجمع اللغة العربية عام ١٩٥٩ وهي تنطبق على ما يمكن أن يقال في محمد محفل: (لقد دعوتَ كل أيام حياتك إلى حرية الفكر والعدل الاجتماعي، ودعوتَ إلى السلام والصداقة، ودافعتَ عن النظام الديمقراطي ونديتَ بالاشتراكية والتعاون فكنتَ في كل ما دعوتَ إليه إماماً يُقتدى به ويهتدى بهديه) (الخطيب: مقالات مختارة ج١ ص١٩).

محمد محفل آمن بما قاله العلامة ابن خلدون: التاريخ علم في باطنه نقد وتحليل وتعليل للكائنات ومباديها دقيق. أراد أن يطبق في حياته العملية كأستاذ جامعي وفي كتاباته كمؤرخ هذه القاعدة العلمية التي يعرفها كل مؤرخي التاريخ الحقيقيين. من ينكر هذه الحقائق هُم أصحاب المصالح الكبار الذين يعرفون التاريخ جيداً ولكنهم خوفاً من كشفه للحقائق يستخدمونه كأداة لتجهيل الناس أو لتضليلهم أو لاستخدامهم منفذين لسياساتهم المعادية للإنسانية....

محمد محفل منذ بداياته في تعلّم التاريخ ثم قيامه بتعليمه عرف المحاولات التي ترمي إلى تشويه التاريخ وإنكار... (علميته) وإنكار قوانينه الموضوعية، ومنها تلك القوانين الأربعة التي أشار إليها على سبيل المثال مؤسس علم العمران عالمنا العظيم ابن خلدون: التطور والسببية، والحتمية والإمكان والاستحالة في أيام الشدة التي تعانيها الأمم كأيامنا هذه. ترون وتسمعون كم يبذل أعداء الشعوب والجهلة من جهود لتزوير التاريخ. هذا ليس بالجديد ولا بالطارئ... هذا داء أوربي أنتجته الامبريالية في القرن التاسع عشر خدمةً لأغراضها.

(يجب أن يحط من شأن العلم والتاريخ وتنزع صلاحيتهما لأنهما شاهدان لا يحتملان على انحلال النظام الرأسمالي) (غارودي: الوجودية فلسفة الاستعمار ص١٦).

(يجب التأكيد على أن التاريخ ليس علماً ولا يمكن أن يطمح إلى القوانين الموضوعية....) (غارودي: الوجودية ص١٥).

هذا ما وقف محمد محفل... مع آخرين غيره في وجهه أراد أن يقول: إن التاريخ علم له قوانينه.. ويجب أن يستخدم لجلاء الحقيقة التي لا يمكن أن تكون إلا في صالح المظلومين والمضطهدين والمهانين ولا أحسب أن كلمة طلاب الفقيد التي سيلقيها بعدي (وفقاً لبرنامج الحفل) تلميذه المؤرخ الدكتور عيد مرعي سيقول خلافاً لما قلت.

سيدي رئيس مجمع الخالدين...

سادتي أعضاء المجمع... السادة ضيوف المجمع...

اجتمعنا لإحياء ذكرى الراحل محمد محفل عضو المجمع.

لقد بنى الإغريق (بانتيونهم) في أثينا ليمجدوا ألهتهم وحكماءهم وقادتهم وشعبهم وأبطالهم وشهداءهم.

وخلق الفرنسيون -على سبيل المثال- (بانتيونهم) لتمجيد عظمائهم.

وأنشأت الحكومة العربية الأولى عام ١٩١٩ واستجابة لتنادٍ تاريخي حتمي وبجهود علم من أعلامها الرئيس محمد كرد علي المجمع العلمي العربي.

خلال عقود كثيرة اتبعتم في هذا المجمع الكريم تقليداً رائعاً في استقبال الاعضاء الجدد وفي توديع الراحلين إلى جنة الخلد.

في كل ما فعلتم في الماضي والحاضر فأنتم حين تحتفلون بوداع مجمعي منكم فإنكم تخلعون عليه هالة المجد والخلود يشير إليه الناس بإجلال واحترام قائلين هذا الراحل خدم أمته بفكره وحمى تراثها وحافظ على لغتها.

ولا يسعني إلا أن اختم كلمتي بشكركم على ما فعلتم، وما في وسعي إلا أن أقول لآل الفقيد ارفعوا رؤوسكم مفتخرين بفقيدكم الغالي وقولوا: لقد كان واحداً من مجمع الخالدين.

كلمة طلاب الفقيد

الأستاذ الدكتور عيد مرعي

كلمة رثاء للأستاذ الكبير المرحوم محمد محفل رحمه الله

قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤ - ٣٥]

صدق الله العظيم

سبحان الذي قهر عباده بالموت.

الموت الجسدي هو الحقيقة الأزلية التي لا يستطيع أي مخلوقٍ أن ينكرها، أو أن يهرب منها. ولكن حاول بعض رجالات القرون العتيقة أن يتجاوزوها بالوصول إلى الحياة الأبدية بطرقهم الخاصة، مثل جلجاميش ملك مدينة أوروك السومرية الذي عاش في القرن السابع والعشرين قبل الميلاد. فقد قام بمغامرات كثيرة بصحبة صديقه إنكيدو. لكن بعد أن قررت الآلهة إماتة إنكيدو، قرر جلجاميش البحث عن الخلود، فذهب إلى ديلمون، تلك الجزيرة البعيدة التي يقيم فيها أوتنابشتيم بطل الطوفان السومري الذي أنقذ البشرية من الفناء، ليرشده إلى طريق الوصول إلى الحياة الدائمة. لكنه فشل في الامتحان الذي أخضعه له أوتنابشتيم، وخسر حتى النبتة التي تعيده شاباً وهو في طريق العودة إلى مدينته أوروك. إلا أنه نجح من حيث لا يدري في تحقيق الخلود المعنوي والفكري، إذ أصبحت ملحمته مشهورة ومعروفة لكل شعوب الأرض قديمها وحديثها.

وهذا ما حققه أيضاً أستاذنا الراحل من خلال مؤلفاته وأفكاره الباقية التي ستبقى خالدة. فقد تعلمنا منه مبادئ الأخلاق والإنسانية قبل كل شيء. هذا إضافةً إلى معارفه ومعلوماته في التاريخ القديم واللغات القديمة. فقد كان معلماً لنا في تاريخ الإغريق والرومان واللغات الآرامية واللاتينية والإغريقية. وكان هادياً لنا في تاريخ سورية القديم، ولا سيما التاريخ الآرامي الذي كان له باع طويل في البحث فيه وتدريسه لطلابه.

لقد تعرفت به في سبعينيات القرن الماضي عندما انتسبت إلى قسم التاريخ في جامعة دمشق، فوجدت فيه المعلم والأستاذ والصديق والرفيق والإنسان المتواضع الذي يحترم جميع الناس ويقدرهم دون النظر إلى وضعهم المادي أو الطبقي أو العلمي، أو انتمائهم الديني أو السياسي.

كنت ألتقيه بين الفينة والأخرى، ولا سيما عندما كان رئيسَ تحرير مجلة دراسات تاريخية، أو أتحادث معه هاتفياً، وفي كل مرة كنت أتعلم منه أشياء جديدة. كان كنزاً لا ينضب من المعلومات في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والفكرية وغيرها. وبقي ذهنه متوقداً معطاءً حتى أواخر أيامه، فقد التقيناه قبل وفاته بنحو ثلاثة شهور في مركز تطوير المناهج التربوية التابع لوزارة التربية، وتناقشنا معه في بعض القضايا التربوية والتاريخية، فحلل وشرح وأفاض في الشرح دون أي مشكلة في التعبير أو الايضاح، اللهم إلا بحَّة بسيطة في صوته.

لقد كان أستاذنا الراحل عملاقاً في كل نواحي الفكر والتاريخ والتربية، ونفتقد بغيابه مصدراً أساسياً من مصادر معرفتنا وتفكيرنا. لكنه سيبقى حياً بأفكاره التي تعلمناها منه على مر الأيام، ولا سيما أن بعضاً من كتبه مازال يُدرَّس في قسم التاريخ بجامعة دمشق ككتاب تاريخ الرومان (الذي شاركه في

تأليفه الأستاذ الدكتور محمد الزين) الذي طُبع عدة طبعات. وكذلك كتاب المدخل إلى اللغة الآرامية الذي طُبع طبعة جديدة هذا العام، ويُدرَّس في قسم التاريخ منذ العام ١٩٧٩. وبوصفي خليفة له في تدريس اللغة الآرامية في القسم طلبت إعادة طباعته كتحية شكرٍ وتقدير له على جهوده في تعليم مئاتٍ لا بل آلافٍ من الطلاب السوريين والعرب. وعندما صدرت هذه الطبعة اتصلت به لأزف إليه الخبر، لكني لم أستطع مكالمته. كان ذلك قبل أسبوعٍ من وفاته.

أخيراً لا بدَّ من الإشارة إلى عبقريته في قراءة الحاضر واستقراء المستقبل اعتماداً على معرفته في التاريخ القديم وعلم الرجال. وأذكر هنا مثالين اثنين عن ذلك فقط. فقد تنبأ بمقتل إسحق رابين رئيس وزراء العدو الصهيوني قبل اغتياله بأسبوع (عام ١٩٩٥)، إذ رأى في ممارسة الذين اغتالوه، والذين ينتسبون إلى إحدى الجماعات اليهودية المتطرفة، إشارة إلى ذلك، فقد كانوا يدورون حول بيته ويشتمون أمه.

والمثال الثاني رؤيته لعزمي بشارة حينما زار دمشق ولقاءه به، إذ قال عنه إنه غير نظيف ومجند للقيام بمهمة تخدم العدو الصهيوني، وقد صدقت رؤيته.

إن هذين المثالين وأمثلة أخرى كثيرة لا مجال الآن لذكرها، تدل على عبقريته الفذة في استقراء المستقبل والحكم على الرجال.

رحمك الله يا أستاذنا الكبير محمد كامل محفل، يا أبا فداء، وتغمدك بواسع رحمته، وأسكنك فسيح جناته. ولكم أنتم سيداتي وسادتي من بعده الصحة والعافية وطول البقاء.

كلمة آل الفقيد
يلقيها نجلُه الأستاذ فداء محفِّل

بادئ ذي بدء أتقدم بالتعزية والشكر الجزيل للسيد الرئيس الدكتور بشار الأسد على رعايته وعنايته بوالدي في حياته، ودعمه وتعزيته لنا في وفاته، ولكل الجهات الرسمية والعلمية ومن أرسل برقيات تعزية أو حضر شخصيًا، ولكل من ألقى كلمات قبل كلمتي مع حفظ الألقاب للجميع...

عندما يأتي المرء ليتحدث أو يكتب عن شخص عظيم يشعر بشيء من الرهبة والقداسة خشيةَ ألّا تسعفه عباراته، أو تخذله المفردات والكلمات لمجرد التفكير به وبعظمته؛ فكيف إذا كان ذاك الشخص المتوفّى هو والدي، وفي الوقت نفسه هو محمد محفّل باسمه الكبير وعظمة قَدْره، وسيرته العطرة التي نشأتُ وترعرعتُ عليها أنا وعائلتي، ومع مرور الوقت كبُرَت مسؤولية الاسم فينا شيئًا فشيئًا حتى أصبحنا أينما ذهبنا نُسأل: ما صلة القربى بينكم وبين الأستاذ الجامعي والمفكر الكبير الدكتور محمد محفل؟ وبالنسبة لي شخصيًا وبحكم دراستي الجامعية (قسم الآثار) كنت أشعر بالفخر الشديد عندما أجيبهم أنه أبي؛ فعندما يترعرع المرء في كنفِ أبٍ يشهد له الصغيرُ قبل الكبير، والقاصي قبل الدّاني بعلمه وأخلاقه وإنسانيته، يشعر أنه إزاءَ هِبةٌ من هبات الله عز وجل، ومرتبةٍ يتمنّاها الكثيرون وقد خصنا الله بها (نحن عائلته).

كان رحمه الله يجمع بين عزّة نفس كبيرة وتواضع عجيبين، وما كنا نلمسه منه

نحن عائلته كأبٍ حنون عطوف، ذي قلب كبير، وما نراه من الناس عندما نكون معه من إجلال واحترام وحتى من مهابة كبيرة، يجعلك وأنت صغير في حيرة أحيانًا.

ولكن مع مرور الزمن تُفْهَم هذه المعادلة شيئًا فشيئًا، لقد زرع فينا الكبرياء والمحبة والتواضع والعلم؛ إذ كانت حكمته الأخلاق قبل العلم، وأنه يجب على الإنسان أن يرتقي خُلْقًا وينحني تواضعًا كلما ازداد علمًا ومعرفةً، فكان رحمه الله خيرَ مثل لإنسان ثريّ بعلمه، غنيّ بأخلاقه، كبيرٍ بتواضعه.

كان أبًا قبل أن يكون معلماً، ليس لعائلته فقط بل لجميع من عايشه وعاشره وتلمذ عنده، و قيلت لي كثيرًا عبارةُ (لا تظنَّ أن محمد محفل أبٌ لكم وحدَكم بل كان خير الأب والأستاذ لنا جميعًا) ومنهم أساتذتي وطلابه في جامعة دمشق.

ومما لا شك فيه أننا فقدنا ثروة علمية وإنسانية كبيرة، وأن الفراغ الذي خلّفه بعد رحيله -رحمه الله- كبير جدًّا، ولكن ما يعزّينا أنه ترك لنا ولأجيال من بعدنا إرثًا ثقافياً ولغوياً وإنسانياً كبيراً، وثمة آلاف من الطلاب الذين تلمذوا له، ومن بينهم نحن أولاده وعائلته.

لقد دمغ بصمةً على جبين التاريخ لن تمحى، بل على العكس، علينا أن ننميها لتصبح نهجًا لأجيال متنوِّرة العقل مبادِئُها الأخلاق والفضيلة والعلم وما أحوجنا إليها الآن.

وبنظرة سريعة في مسيرة حياته نجد أنه وُلد وتربّى في حي اسمه زقاق الأربعين في مدينة حلب؛ حيّ له تركيبة ديموغرافية ودينية فريدة تختصر تركيبة بلدنا الحبيب سورية، مما أعطاه منذ صغره عقلاً منفتحاً يتقبل الآخر دائمًا. ثم انتقاله إلى دمشق، وبعدها استقراره خمسة عشر عامًا في بلاد المهجر واطلاعه ودراسته لثقافات الغرب والعرب وإتقانه أكثر من لغة، رسّخ نهجه في الحياة، وأعطاه نظرة بانورامية وديناميكية فريدة في التفكير والتعامل أثناء حياته ومسيرته العلمية.

كان لحلبَ وَقْع خاص في قلبه، وعلى الرغم من محبته لدمشق ولكامل تراب وطنه؛ فقد كان يترنّم وتلمع عيناه ببريقٍ فريد عندما تحدثه أو يتحدث عن مدينة حلب، وتنفرج أساريره عندما ينادونه بـ (المؤرخ الحلبي).

من المفارقات الغريبة أثناء التعزية بأبي - رحمه الله - أننا كنا نرى طلابه بأعمار الستين والسبعين ويجلس بجانبهم طلابه بأعمار العشرين والثلاثين.

وداعًا يا والدي، أحببتَ تراب سورية فأحبك وتغمدك في ثراه.

رحمة الله عليك يا أبا الفداء...

والسلام عليكم ورحمة الله